تناقضات المنهج الاستعماري عبر التاريخ

بقلم الأستاذ المساعد الدكتور أحمد حمو مزعل
كلية اللغات- جامعة المدينة العالمية
قسم اللغة الإنجليزية

الحقيقة تكمن في أن سياسة أوربا الاستعمارية لا يمكن إلا أن تقود الى خراب أوروبا نفسها. وإذا لم تتنبه أوربا الى ما تفعله فإنها سوف تقع في الهاوية بسبب الفراغ الذي أوجدته حول نفسها.

ايمي سيزر

من كتاب (مقدمة في المنهج الاستعماري)

ملخص البحث:

يهدف البحث الى تبيان حقيقة أن الحملات الاستعمارية, ماضياً وحاضراً, كانت قد ساهمت- وتسهم- وبشكل جوهري ليس فقط في إضعاف واستنزاف قدرات القوى التي تبنت المشروع الاستعماري وإنما ايضاً الى خلق حالة من التخبط و عدم الاستقرار عند المستعمِر. هذه الحالة اضعفت وشتتت قوته وعكست معادلة القوة لصالح الشعوب المستعمَرة. ان الممارسات العدوانية واللجوء الى العنف المفرط وعمليات الإبادة التي قام بها المستعمِر ضد السكان المحليين ماهي الا دليل على عدم استقرار الأول وخوفه من الثاني لإدراك الأول حجم الخطر المحدق به والغضب الذي يعتمل في صدر الثاني ضده. وعليه سيطرت على المستعمِر حالة مزمنة من هوس إنشاء الأسوار وخطوط الحماية التي تبعده عن المستعمَر لدرجة جعلته يعيش في عزلة تامه وخانقة ولم يعد بوسعه رؤية حقيقة ما يجري في نفس المستعمَر من غضب ورغبة في الانتقام. وفي الواقع وجود هذه الأسوار والخطوط الدفاعية لم يوفر للمستعمِر الشعور بالأمان والطمأنينة وانما على العكس تماماً حيث كان وجودها تجسيداً مستمراً ومملوساً لصورة الخطر الذي يشعر به والذي

قد ينفجر في أيةُ لحظة. وعليه اقترن وجود المستعمِر بالأرض التي احتلها بالقوة مع تنامي حالته العصابية وتفاقمها وربما حالات الهلوسة والرهاب. وكلما كان المستعمِر أكثر عدوانيةً وعنفاً في تعامله مع السكان المحليين كلما كان رهابه أكبر وحالته النفسية والعصبية أكثر عطباً واستعداداً للانهيار الذاتي.

المقدمة:

ظهر الاستعمار الأوربي نتيجة دوافع اقتصادية بحتة دفعت جيوش البلدان التي تبنت المشروع الاستعماري الى الاندفاع الى مناطق عديدة من العالم بحثاً عن المكاسب المادية من خلال الاستيلاء على أراضي الدول الأخرى ومصادرة مواردها ونهب خيراتها. وبدأت هذه البلدان بتنفيذ مشروعها الاستعماري بالإبحار بسفنها الى قارات اخرى بهدف التوسع والسيطرة على أراض جديدة لاستغلال مواردها الطبيعية والبشرية لإدامة هذا المشروع وإنجاحه. ومما لا شك فيه ان قيام القوى الاستعمارية بالاستيلاء على اراض الدول الأخرى وضمها تحت سيطرتها كان قد زاد من المساحة الجغرافية الواقعة تحت سيطرة هذه القوى لكنه وسَّع أيضاً من دائرة صداماتها وضاعف عدد خصومها سواء من السكان المحليين الذين تم مصادرة أراضيهم واستعبادهم أو من القوى الاستعمارية الاخرى التي كانت تتنافس وتتسابق مع بعضها البعض من أجل السيطرة على مزيد من الاراضي واستغلال مواردها الطبيعية لنفس الغرض. وبسبب حالة العِداء والتوتر التي خلقتها هذه القوى حول نفسها ومع الآخر وعلى مر العصور, بات من المعروف أن جميع هذه القوى أصبحت تحمل بذور دمارها بداخلها لأنها قوى تبني كياناتها من خلال التوسع خارج حدودها وتستمد قوتها من خلال السيطرة على موارد الدول الأخرى وخيراتها. وعلى الرغم من التفوق في الآلة الحربية والجيوش التي تملكها هذه القوى الا إنها لم تستطع الاستمرار في الحفاظ على كياناتها وتثبيت مؤسساتها الاستعمارية في البلدان التي تم استعمارها وانتهت جميعها بالتفكك والانهيار. حيث يروي لنا التاريخ ان جميع القوى الاستعمارية بلا استثناء كانت

تنتهي نهاية واحدة وهي الانهيار بسبب السعي المحموم للتوسع الجغرافي من أجل دعم مشروعها التوسعي. وكان (إدوارد جيبون) قد أشار في كتابه (تأريخ ضعف وانهيار الإمبراطورية الرومانية) (1776-88) الى ان من أهم المخاطر التي تواجه مستقبل الامبراطوريات وتهدد كياناتها هو التوسع الجغرافي من خلال السيطرة على أراضي الدول الاخرى لما يترتب عليه من التزامات ومتطلبات مُرهقة تأخذ شكل ضغوط اقتصادية وسياسية تساهم بشكل مباشر في زعزعة الامبراطوريات وتقود بالنهاية الى انهيارها المؤكد[1]. وفي السياق نفسه تطرق المؤرخ (نيل فيرجسون), بالإشارة الى الولايات المتحدة الأمريكية باعتبارها إمبراطورية العصر, الى ان جميع الإمبراطوريات مهما كانت قوتها ومتانة اقتصادها تتجه الى مصير محتوم واحد الا وهو الانهيار والسقوط. هذا السقوط وحسب ما يراه المؤرخ يكون بشكل فجائي (على عكس ما يراه المؤرخون التاريخيون) بسبب الضغوط المالية والاقتصادية التي تقع على الإمبراطورية. تتمثل هذه الضغوط بالأزمات والعجز المالي بسبب الانفاق المالي الكبير على التسليح[2].

بدأت أوربا بتنفيذ مشروعها الاستعماري من خلال إرسال حملات عسكرية إلى بلدان وجزر العالم الأخرى تحت ذريعة التواصل مع شعوب العالم من أجل التجارة والرغبة الانسانية في التعايش والتواصل لنشر المحبة والأخوة والحضارة. واعتمدت بالدرجة الأساس في مشروعها الاستيطاني على شعار الإيثار والرغبة الإنسانية والدينية في تخليص الشعوب من براثن التخلف والجهل والوثنية وهدايتها الى طريق الله والخلاص ونور الحضارة. ولهذا استطاعت كسب ود كثير من الشعوب التي رحبت بها وسمحت لسفنها من الرسو في موانئها ودخول اراضيها. كانت اللغة التي استخدمتها القوى الاستعمارية في التواصل مع الشعوب المستهدفة هي لغة الإيثار والمحبة ونشر الحضارة والمعرفة مما حدى بالسكان المحليين الى الترحيب بالقادم الجديد رغبةً منهم في مد جسور التواصل والتعارف بين شعوب المعمورة. استطاع الاستعمار من نشر وتعزيز مؤسسته الاستعمارية من أجل نهب خيرات هذه الشعوب ومصادرتها ليتم شحنها الى البلد

الأم من أجل تعزيز اقتصاده ومن أجل التجهيز لمزيد من الحملات العسكرية الاستعمارية الى بلدان وجزر أُخرى. طبعا لم يمض وقت طويل حتى توضح الأمر وبانت حقيقة هذه الحملات الأجنبية والهدف من ورائها فما كان من السكان المحليين الا أن استنفروا كل طاقاتهم وقدراتهم من أجل المقاومة وطرد المحتل ومهما كانت التضحيات. هنا بدأت هذه الحملات بالكشف عن حقيقة مشروعها الاستعماري حيث بدأت باستخدام القوة والعنف غير المسبوقين من أجل إبادة السكان المحليين. وعلى اية حال, فإن لجوء القوى الاستعمارية الى استخدام القوة والعنف من أجل تشريد السكان, وفي حالات كثيرة إبادتهم, لم يثن إصرار هؤلاء السكان وعزيمتهم على المقاومة والصمود—رغم ضعف قدراتهم العسكرية والبشرية مقارنة بقدرات الاستعمار— واستطاعت هذه المقاومة الشعبية في نهاية الأمر أن تفرض إرادتها وتجبر الكيانات الاستعمارية على الرحيل والانسحاب من المستعمرات.

إن استخدام الاستعمار للعنف والابادة ومصادرة ممتلكات الشعوب لم يفشل فقط في قمع وقتل الروح الثورية عند هذه الشعوب بل على العكس تماماً خلق فيها قوة ردع عظيمه لا يمكن حتى للآلة الحربية المهولة للاستعمار من السيطرة عليها. ليس هذا فحسب بل ان سياسة القوى الاستعمارية في استخدام العنف بكل أشكاله ضد الشعوب كانت قد حولت هذه الشعوب الى قنبلة موقوتة يمكن أن تنفجر وتحرق الأرض تحت أقدام المحتل في اية لحظة. يقول (فرانتز فانون) في معرض وصفه للغضب والروح الانتقامية المتأججة عند السكان المحليين ضد المستعمِر: "بالطبع إن كم الانتهاكات الكثيرة التي قام بها المستعمِر ضد السكان المحليين كانت قد أضافت عاملاً نفسياً إلى نضال السكان ضد المستعمِر. هذا العامل خلق سبباً آخر للكره وأعطى للسكان مبرراً آخر للخروج والبحث عن المستعمِر أينما كان لقتله".[3]

لم تكن القوة المفرطة والعنف هما السلاح الوحيد الذي استخدمه الاستعمار من أجل تثبيت ركائز حكمه ووجوده في البلدان التي استهدفها وإنما كان هنالك سلاح آخر لا يقل فعاليةً وتأثيراً وهو سلاح اللغة والأقناع. استخدم الاستعمار مفهوم التنوع في الأجناس البشرية كمبدأ لأحداث تصنيفات طبقية لا تعتمد بالدرجة الأساس على مبدأ الاختلاف بين الأجناس البشرية وإنما تعتمد جوهرياً على فكرة التصنيف الطبقي وعدم المساواة بين هذه الأجناس مؤكداً على وجود هوة حضارية ومعرفية عظيمة ما بين الجنس الأبيض والاجناس البشرية الاخرى. بدأ هذا المفهوم منذ القرن الخامس عشر عندما أقام البرتغاليون المستعمرة البرتغالية في سبته عام 1415— والتي يعتبرها المؤرخون بداية انطلاق الاستعمار—حتى أصبح في القرن التاسع عشر مبدأ وايماناً راسخاً لدى الأوربيين مفاده أن الجنس الأبيض هو الجنس المتفوق والمتحضر الوحيد على الأرض وليس هنالك حضارة سوى حضارة الجنس الأبيض[4]. أما شعوب الأجناس الأخرى فهي شعوب متخلفة, همجية وتفتقر الى القيم الإنسانية والى أبسط مقومات الحضارة والمعرفة وعليه فهي شعوب غير مدركة وغير قادرة على حُكم نفسها والتحكم في غرائزها وتحتاج الى من يقودها ويحكمها[5]. وطبعاً لم يكن هذا المفهوم الا مناورة سياسية تم إعدادها بشكل متقن في دهاليز السياسة الاستعمارية ليس فقط من أجل الحط من قدر الشعوب الاخرى وتدمير ثقتها بنفسها فحسب وإنما أيضاً من أجل ايجاد مبرر وذريعة لاغتصاب أراض هذه الشعوب ونهب خيراتها بحجة إنقاذها من براثن التخلف والجهل والوثنية.

وبسبب التفوق العسكري في العدد والعدة الذي كانت تتمتع به القوى الاستعمارية وكذلك استخدام العنف ضد الشعوب عن طريق استخدام أحدث المعدات الحربية وأكثرها فعاليةً في القتل والإبادة الجماعية, استطاعت هذه القوى أن تغرز في نفس السكان المحليين فكرة وجود هوة عظيمة بين الطرفين من أجل خلق عقدة النقص والشعور بالضعف وعدم القدرة على المواجهة لكي تكون سلاحاً نفسياً آخراً لا يقل تأثيراً عن السلاح الفعلي لكسر روح المقاومة

والتحدي عند السكان المحليين وإجبارهم على الخضوع والاستسلام. وعلى اية حال قادت هذه الهوة إلى آثار سلبية وخطيرة ليس فقط على السكان المحليين وانما وبدرجة أكبر وأخطر على الاستعمار نفسه وقادت فيما بعد الى تهاوي وانهيار أركان نظامه ومؤسساته. كانت هذه العلاقة التصنيفية والطبقية التي أوجدها المستعمِر بينه وبين السكان المحليين قد خلقت جواً مشحوناً بين الطرفين وأذكت حالة الانتقام عند الثاني الذي ضاق ذرعاً بالوعود الكاذبة واغتصاب الأرض والتشريد والإبادة الذي مارسه الاستعمار ضد أبناء البلد. وبسبب هذه الممارسات, بدأ السكان في إعداد العدة وتنظيم قواهم لمقاتلة المحتل وطرده من الأرض بكل الوسائل المتاحة وعلى كافة الأصعدة متسلحين بالأيمان بمشروعية نضالهم والتصميم على استرجاع ارضهم وهويتهم وكرامتهم. أدرك السكان بأن الاستعمار لم يسلب الأرض ويصادر خيراتها ويشرد ويذل أبنائهم فحسب بل سلب هويتهم, تأريخهم, ثقافتهم وحتى لغتهم. يقول (جورج ليمنج) واصفاً حالة التصميم والإرادة الصلبة عند ابناء هاييتي في ثورتهم ضد المستعمرين البيض الذي كانوا قد سلبوا ارضهم واستعبدوهم دهراً من الزمن:

> قاتل أبناء هاييتي المستعمِر بكل شيء كانت تصل له أيديهم مثل العصي, القناني, قطع الحديد و كل شيء ممكن ان يحدث ضرراً في المستعمِر على الرغم من أن الجياد التي بحوزتهم كانت اما هرِمة أو جائعة. كانت هذه حالة جيش الثوار العبيد الذين كان لزاماً عليهم أن يدفعوا ثمن هذا من دمهم في ليلة الثورة وهم في العراء. لكنهم كانوا متسلحين بالإرادة والعزيمة التي جسدوها في اغانيهم.[6]

من المعروف أن الاستعمار ظاهرة تعتمد أساساً على اغتصاب أراضي البلدان الأخرى واستغلال مواردها الطبيعية والبشرية من خلال بسط السيطرة القسرية باستخدام القوة والعنف. ومما لاشك فيه أن تأثير هذه الظاهرة على الشعوب المستعمَرة كان مأساوياً وكارثياً لكن هذا التأثير لم يكن مقتصراً على هذه الشعوب, بل كان وربما بدرجة أعظم على القوى الاستعمارية نفسها. حيث إن هذه القوى وبسبب ممارساتها الوحشية ضد السكان المحليين لم تبرهن

فقط للعالم عن مدى زيف ادعاءاتها وكذب وعودها بانها دول متحضرة تحترم الإنسانية وتهدف الى نشر نور الحضارة والمعرفة وانما أضعفت قوتها وقدراتها بالاندفاع الى مراكز بعيدة عن حدودها وأوجدت لنفسها خصوماً كثيرين يحاولون بشتى الوسائل إضعافها وهدم اركان مؤسساتها. المؤسسة الاستعمارية سواء كانت بالمركز الأم أو بالمستعمرات لم تكن يوماً أمنه بل كانت تعيش حالة تهديد مستمرة بسبب ممارساتها العدوانية وزيف ادعاءاتها ووعودها. إن المستعمِر الذي اختار لنفسه أن يقيم كياناً طفيلياً نفعياً يعتمد على الاغتصاب والعنف فانه بهذا قد اختار لنفسه حياةً غير أمنه ومهددة يشوبها التوجس والخوف من المجهول في أرض غريبة يجهل عنها وعن أبنائها الكثير. وهكذا تصبح ظاهرة الاستعمار ظاهرة مَرَضية عطبيه تعمل على تقويض كيان من يتبناها وتقوده الى حالة من الخوف المزمن والعصاب التي ربما لا يستطيع علاجها أو التخلص من اثارها النفسية حتى بعد العودة الى بلده الأم.

ليس من الخطأ الاعتراف بأن القوى الاستعمارية, وعبر التاريخ, كانت تمتلك من مقومات القوة مثل القوة البشرية والتفوق في الآلة الحربية ما يفوق بكثير تلك التي كانت تملكه الشعوب التي كانت هدفاً للحملات الاستعمارية. هذا التفوق في العدد والعدة جعل موازين القوى العسكرية تميل لصالح الدول الاستعمارية بداية واكسبها قوة دفع كبيرة استطاعت من خلالها أن تجد لها موطئ قدم في البلدان المستهدَفة. ساهم هذا التقدم والتفوق في الآلة الحربية في مساعدة القوى الاستعمارية على المضي قدماً في المشروع الاستعماري وتوسيع رقعته. ومما لا شك فيه ان هذا التوسع لم يكن دون عواقب وخيمة ليس فقط على الدول التي كانت هدفاً للاستعمار وانما كانت بالدرجة الأساس على الاستعمار على الساحة المحلية والدولية معاً. يصف(آدم سميث) في كتابه (ثروات الأمم) الآثار السلبية المترتبة على إقامة المستعمرات التي لا تقود فقط الى نشوب حروب ومواجهات عسكرية مكلفة وانما تقود أيضا الى خلق بؤر للفساد والتآكل بسبب العبء الثقيل التي تسببها إقامة هذه المستعمرات على هذه الدول:

إن مسألة تخلي بريطانيا العظمى طواعية عن جميع مستعمراتها وترك لها حرية انتخاب من تراه مناسباً من أبنائها لرعاية شؤونها وسن القوانين التي تراها مناسبة لها وإعلان حالة الحرب او السلم بما يتناسب مع مصالحها هو أمر مهم. ما من أمة كانت قد تخلت طواعية عن مستعمراتها رغم الصعوبات والخسائر التي تفرضها إقامة مثل هذه المستعمرات ورغم قلة الموارد الطبيعية الواردة منها والخسائر المرافقة معها. مثل هذه التضحيات تكون دائماً موضع فخر لكل أمة ولكنها تتناقض وبشكل عظيم مع المصلحة الخاصة للطرف الذي يسيطر على المستعمرة وبهذا يكون قد خسر الاستفادة من كثير من الأماكن ذات المنفعة وغير المضطربة التي يمكن الاستفادة منها. وعليه سوف لن يكون بإمكان حتى أكثر المتحمسين من تبني هذه الفكرة أو يجد من يتبنى هذه الفكرة.[7]

إن التكاليف المتزايدة التي يتطلبها المشروع التوسعي وإقامة المستعمرات في أماكن بعيدة عن البلد الأم يقود إلى تبديد الموارد البشرية والمادية للبلدان التي تنتهج هذا المشروع. هذا الأمر يقود بالنتيجة الى تبعات اقتصادية وعوامل تهدد اقتصاديات الدول إضافة الى خلق موجة من السخط والانتقادات المحلية ضد حكومات هذه البلدان. أما في المستعمرات, والتي تم إنشائها على الأراضي التي تم الاستيلاء عليها بقوة السلاح تبدأ مطالب السكان المحليين التي تنادي بالتحرر وحق تقرير المصير بالتصاعد وتأخذ شكلاً من أشكال التصدي والعنف الذي يتنامى ويبدأ بتهديد استقرار الاستعمار ويقوض مؤسساته. هنا تضع القوى الاستعمارية نفسها في المواجه مع جبهات عدة تحاول جميعها النيل منها وزعزعة استقرارها. تتمثل الأولى بالشعوب التي ترزح تحت نير الاحتلال وتحاول التخلص منه بشتى الوسائل والثانية بالقوى الاستعمارية الأخرى التي تتنافس مع بعضها البعض في الحصول على أراض جديدة لإدامة مشروعها الاستعماري أما الثالثة فتتمثل بالجبهة الداخلية التي تبدأ بالمطالبة بإنهاء كل أشكال الهيمنة التي تكبد البلاد خسائر بشرية ومادية كبيرة.

إن أي دراسة تحليلية لتاريخ الاستعمار والمشروع الإمبريالي ومنذ حملة كولومبوس لما يسمى باكتشاف العالم الجديد في عام 1492—التي يشوبها الكثير من الشكوك[8] – تقودنا الى كثير من التساؤلات وتدعو إلى مزيد من التحقق والتحقيق في الشعارات التي كانت القوى الاستعمارية تستخدمها في تواصلها مع الشعوب. كانت جميع هذه الحملات تستخدم شعار نشر الحضارة والقيم الإنسانية النبيلة إلى شعوب الأرض أينما كانوا وتدعي إنها عبرت البحار مدفوعة بمبدأ الإيثار والسعي الإنساني البحت من أجل الأخذ بيد الشعوب الاخرى نحو التحضر والحرية والخلاص. طبعاً لم تكن هذه الشعارات الا مناورة لغوية سياسية الغرض منها كسب ود الشعوب وترحيبهم لكي تستطيع سفن المستعمِر من الرسو في موانئ الدول الاخرى والسيطرة عليها دون مقاومة أو خسائر. هذه المناورة والتي اتخذت من استخدام لغة المحبة والخير ومساعدة الشعوب الأخرى لم تكن الا "فكرة عنصرية أو نفاقاً"[9] لأنها كانت مناورة تعتمد بالدرجة الأساس على اللغة لكي تخفي وراءها مخطط استيطاني استعماري نفعي كان قد تم إعداده بشكل مُحكم في دهاليز السياسة التوسعية للاستعمار من أجل السيطرة على اراضي وخيرات دول أخرى تبعد آلاف الأميال. يصف (ميشيل دي كونيو) وهو أحد المغامرين الذين رافقوا كولومبس في رحلته الثانية الى العالم الجديد الطريقة التي تعامل بها كولومبس ورجاله مع السكان المحليين للعالم الجديد:

> بتاريخ السابع عشر من شهر فبراير عام 1492 كنا قد بدأنا استعداداتنا من أجل العودة الى إسبانيا. وكنا قد جمعنا عدداً من السكان المحليين من الرجال والنساء لكي نختار بعضاً منهم لأخذه معنا. أجبرنا 550 فرداً ممن كانوا بصحة جيدة إلى الصعود إلى السفينة. وبعد أن حُمل الجميع في السفينة لم يتبق غير (400) فرداً على الساحل فأخبرناهم بأنهم أحرار في العودة إلى بيوتهم أو الذهاب إلى اي مكان يريدونه. ومن شدة خوفهم من أننا قد نغير رأينا ونجبر البقية للصعود إلى السفينة, فر الجميع مذعورين وكان من بينهم أمهات يحملن

أطفالاً رضع على صدورهن فلم يكن منهن إلا أن رمين اطفالهن على الأرض ولذن بالفرار مذعورات من شدة الخوف.[10]

في السياق نفسه, يكتب هوارد زن في كتاب (تاريخ شعب الولايات المتحدة: من عام 1492 وحتى الحاضر) واصفاً الأفعال الوحشية واللاإنسانية التي قام بها كولومبس والإسبان ضد هنود أمريكا:

> في الكتاب الثاني من كتاب تاريخ الأنديز للمؤلف (لاس كاساس) يخبرنا (لاس كاساس) عن الطريقة التي كان الإسبان يعاملون فيها الهنود. كان الرجال من السكان الأصليين يُرسلون إلى المناجم التي تبعد أميال عدة أما الزوجات فيُجبرن على العمل في المزارع من حفر وتهيئة الأرض من أجل زرع نبات الكسافا. ولم يكن يُسمح للرجال بلقاء زوجاتهم الا مرة واحدة كل ثمانية أو عشرة أشهر. وطبعاً يكون كلاً من الزوج والزوجة متعبين ولا تتم عملية المعاشرة الزوجية فيتوقفا عن الإنجاب. أما بالنسبة للأطفال فإنهم كانوا يموتون مبكراً بسبب عدم توفر الحليب في صدر الأم بسبب الإجهاد المفرط وقلة الطعام. ولهذا السبب, ...مات أكثر من 7000 طفل في غضون ثلاثة أشهر. وقام بعض الامهات بإغراق اطفالهن نتيجة حالة اليأس العميق التي كن يشعرن بها. هذه كانت حالة السكان المحليين حيث إن الأزواج يموتون في المناجم والزوجات يمتن في العمل والأطفال يموتون بسبب نقص الحليب وبهذا تتحول البلاد وفي وقت قصير إلى أرض يباب خالية من السكان بعد أن كانت أرض كبيرة وخصبة.[11]

هذا هو فِكر الحملات التي جاءت بسفنها عبر البحار تحمل شعار المهمة المقدسة لنشر الحضارة إلى شعوب المعمورة. حملات كان الهدف منها السيطرة على الشعوب وسرقة ثرواتها واستعباد أهلها وإبادة من يحاول المقاومة ورفض الهيمنة الأجنبية. هذه هي ممارسات من كانوا يدعون الحضارة والتحضر ومبدأ الإيثار فهل يمكن أن تكون مثل هذه الممارسات مظهراً من مظاهر التحضر والحرية والانسانية؟ ولعل خير مثال يعكس لاإنسانية الدول الاستعمارية وهمجيتها ذلك الذي نقراه من خلال كتابات المؤلف التاريخي (نيل فيرغسون)

حيث يقول واصفاً العنف المفرط والإبادة الجماعية التي كان الاستعمار البلجيكي في الكونغو قد قام بها ضد السكان المحليين إبان الحرب العالمية الاولى:

> كان الحكم البلجيكي في الكونغو قبل الحرب العالمية الاولى مثلاً حياً من أمثلة انتهاك حقوق الإنسان. حيث تم إنشاء الجمعية العالمية لزراعة المطاط وكذلك مد السكة الحديد من خلال مبدأ السخرة وإجبار السكان المحليين على العمل دون مقابل. وكانت جميع أرباح هذه المؤسسات تذهب الى جيوب الملك (ليوبولد) الثاني. كانت هذه حالة الطمع والجشع التي يتميز بها الحكم البلجيكي في الكونغو. وبسبب سياسة القتل والتجويع التي مارسها البلجيكيون في الكونغو إضافة الى انشار الأمراض وانخفاض معدل الخصوبة لقي أكثر من عشرة ملايين فرد من السكان المحليين حتفهم, اي ما يعادل نصف عدد السكان.[12]

إن جميع القوى الاستعمارية وعبر التاريخ لم تحمل إلى الشعوب التي كانت تستهدفها غير الدمار والخراب لأنها لم تكن إلا عبارة عن كيانات طفيلية يعتمد وجودها على مبدأ انتهاك حقوق الإنسان وحق تقرير المصير وإبادة الشعوب ومصادرة مواردها وخيراتها. ولم تعبر سفن هذه القوى البحار الشاسعة من أجل نشر الحضارة والحرية والعدل كما كانت تدعي بل كانت حملات مسلحة ومنظمة كان الهدف منها السيطرة على موارد الدول الاخرى حتى وإن تطلب الأمر إبادة هذه الشعوب. اذاً كانت هذه الحملات رمزاً للدمار والهمجية والبربرية لأنها سعت وبشكل منظم الى إبادة الجنس البشري من أجل مصالح نفعية. هذه المصالح لم تكن فقط بعيدة عن قيم العدالة الإنسانية والأخلاقية بل سعت إلى إلغاؤها واستباحتها لكي يتسنى للمستعمِر احتكار هذه المصالح لنفسه وحرمان اهلها الأصليين من الانتفاع بها. يصف لنا (اليكس دو تو كوفيل) الفرق بين الإنسان المتحضر وغير المتحضر في معرض حديثه عن الحضارة حيث يقول: " كلما أمعنت التأمل والتفكير في الأمر أجد أن الفرق ما بين الإنسان المتحضر وغير المتحضر فيما يخص العدالة الإنسانية هو أن الأول يناضل من أجلها بينما الثاني يستبيحها"[13] . وعليه فإن مفاهيم العدالة والحرية

والكرامة والملكية الخاصة لم تكن يوماً من مفردات قواميس الكيان الاستعماري ولم يعترف بها اي كيان استعماري لأن المشروع والفكر الاستعماري يقوم أساساً على السيطرة على الشعوب وقمعها والغاء وجودها وإخراس صوتها. وبتطبيق وصف (اليكس دو توكوفيل) لمفهوم الفرق ما بين الإنسان المتحضر من غيره على الظاهرة الاستعمارية, يتبين لنا من هو المتحضر فعلياً من غير المتحضر. هذا المفهوم يتضح أكثر فأكثر بقراءة كتابات (كارل جوستاف يونج) النفسية الذي يتطرق الى وصف الظاهرة الاستعمارية ويعطي تحليلاً نفسياً لطبيعة سلوكية المنهج الاستعماري حيث يقول:

> نحن نعتقد أن الظاهرة الاستعمارية أو ما يسمى بالحملات لتخليص الشعوب الوثنية من الجهل ونشر الحضارة تمتلك وجهاً أخر الا وهو وجه الطيور الجارحة التي تحمل في ثناياها نوايا همجية والتي تبحث عن الطريدة حتى وإن كانت تبعد عنها أميالاً. الظاهرة الاستعمارية لها وجهاً آخر الا وهو وجه القرصنة والخروج عن القانون. صورة هذه الكائنات المفترسة التي تقبع في دواخلنا ماهي الا تمثيلاً نفسياً لطبيعتنا الحقيقية.[14]

من هنا تتوضح حالة التناقض والتخبط في المخطط الاستعماري الذي يقود إلى تداعيات تساهم وبشكل كبير في تقويض وتآكل هياكل المؤسسة الاستعمارية. ومن المفارقات, نجد ان إصرار الاستعمار على استخدام العنف من أجل إخضاع السكان المحليين وضمان انصياعهم لأوامره لم يحقق أي نجاح بهذا الخصوص, بل على العكس تماماً حيث إن سياسة العنف والتنكيل التي ينتهجها الاستعمار كانت دائماً ما تقود الى تأجيج حالة الغضب والكراهية وتوسيع حالة العِداء ضد المستعمِر وكل من يمثله. هذا التناقض والتضارب في سلوكيات الاستعمار يصبح السمة الأساس في سلوك ومنهج الاستعمار ويقود دائماً الى نتائج ذات عواقب وخيمة على المؤسسة الاستعمارية ومستقبلها. إن محاولات الاستعمار المستمرة لإلغاء وتهميش السكان المحليين دائماً ما يقود الى ردة فعل عنيفة من قبل السكان من أجل تعزيز الهوية المحلية والحالة الوطنية

التي يحاول الاستعمار الغائها وطمسها. وعليه نجد إن محاولات الاستعمار المستمرة لإلغاء الهوية المحلية لا تصبح محاولات يائسة فقط وانما تعطي مزيداً من القوة والدفع للمقاومة الشعبية والكفاح المسلح. يكتب (جون بول سارتر) في مقدمته لكتاب (المستعمِر والمستعمَر) للكاتب (البرت ميمي) في هذا السياق:

تخلق الظاهرة الاستعمارية في السكان المحليين حالة من الوطنية العالية. وبسبب العنف والقوة التي تتطلبها الظاهرة الاستعمارية, يتم تجريد السكان المحليين من كل الحقوق حتى حق العيش وتبدأ حالتهم تسوء يوماً بعد يوم ولا يبق لديهم غير الموت. عندما لا يجد السكان المحليين من مستعمريهم الا البؤس والتشريد عندها لن يبق لديهم ما يخسرونه عند ذلك تصبح حالة البؤس التي يعيشونها هي دافعهم وقوتهم.[15]

حالة التخبط والتناقض في سلوكيات القوى الاستعمارية هذه كان قد تطرق اليها الكثير من الكُتاب والمفكرين وفي معظم كتاباتهم. ولعل خير ما كُتب بهذا الخصوص ما جاء في كتابات (أيمي سيزر) الذي يكتب منتقداً مفهوم الحضارة التي ينادي بها الاستعمار. حيث يؤكد الكاتب على ان الحضارة التي ينادي بها الاستعمار هي حضارة مبنية على أساس وجود علاقة من القهر والاستبداد ما بين المستعمِر والمستعمَر يكون فيها الأول هو المهيمن والمستبد والثاني هو العبد المستغَل صاحب الإردة المسلوبة. وحسب ما يراه الكاتب فان الحضارة التي تدعيها وتنادي بها القوى الاستعمارية هي حضارة "متفسخة" , "ميتة" و "متهاوية" لانها حضارة تقود الى مشكلتين رئيسيتين لم تستطع القوى الاستعمارية من ايجاد الحلول لها الا وهما المشكلة الاستعمارية والمشكلة البروليتارية أو ما يسمى بمشكلة الطبقات العاملة حيث يكتب:

إن الحضارة التي تبرهن على انها غير قادرة على إيجاد الحلول للمشكلات التي توجدها هي حضارة متفسخة. الحضارة التي تغض الطرف عن أهم مشكلاتها ما هي الا حضارة عليلة. الحضارة التي

تستخدم من المبادئ كمادة للزيف والخديعة هي حضارة ميتة. ان الحضارة الأوربية , او ما يسمى بالحضارة الغربية كما كان يطلق عليها ولقرنين من الزمن من الحكم البرجوازي, هي حضارة غير قادرة على حل اهم مشكلتين كانت هذه الحضارة قد أوجدتهما وهما المشكلة الاستعمارية ومشكلة الطبقات العاملة. اوربا ,وبسبب سلوكها, لم تستطع ان تبرر موقفها منطقيا واخلاقياً ولهذا نجدها دائما تختبئ خلف قناع النفاق والذي يضعف موقفها لأنه قناع مكشوف ولا يمكن أن يخدع الآخرين ولهذا تصبح أوربا كياناً عليلاً.[16]

ويذهب الكاتب (ايمي سيزر) في نقاشه حول الظاهرة الاستعمارية إلى أبعد من ذلك حيث يتطرق في نقاشه مشيراً إلى أن هذه الظاهرة هي ظاهرة همجية بربرية تسعى إلى تجريد الإنسان (المستعمِر بالدرجة الأساس) من إنسانيته لأنها ظاهرة تتطلب موقفاً دكتاتورياً واستبدادياً تجاه الآخر الذي يتم إخضاعه وتهميش دوره وإلغاء وجوده وأدميته وبالنتيجة تنعكس هذه الحالة على النفس التي تمارس الاستبداد والدكتاتورية. وبنفس المضمون يصف لنا الكاتب الإنجليزي (جورج أرول) انعكاسات الدور الدكتاتوري والاستبدادي الذي يمارسه المستعمِر الأبيض تجاه الشعوب التي كانت ترزح تحت نير الاحتلال وماهي النتائج المترتبة عليه:

عندما يتحول الرجل الأبيض إلى طاغية فإنه بهذا لا يدمر إلا حريته لأنه يصبح مجرد دمية وكيان أجوف يؤدي دوراً مفروضاً عليه. حيث يتحول إلى ذلك الفرد الذي يقضي حياته من أجل أن يُحدث تأثيراً في السكان المحليين ويؤدي دوراً ربما لا يريده هو بل ما يتوقعه السكان المحليين منه أن يؤديه. وبهذا يلجأ إلى وضع قناع على وجهه حتى يتلاءم وجهه عليه.[17]

أما الكاتب الفرنسي (البرت ميمي) فيرى أن الظاهرة الاستعمارية ماهي إلا شكل من أشكال الفاشية لأنها تستخدم العنصرية والإرهاب كأدوات يتم من خلالها إخضاع الآخر بوحشية وإجباره على الانصياع التام لتعاليمها. ويرى الكاتب ان الظاهرة الاستعمارية هي ظاهرة نفعية تعتمد على اكتساب الربح والمكاسب المادية وليست مشروع إنساني لتخليص الشعوب من التخلف والوثنية لأنها ظاهرة تجعل من يعمل بها "يكسب أكثر وينفق أقل" [18]. ومن أجل

المحافظة والإبقاء على هذا الامتياز يلجأ المستعمِر الى تزييف ومغالطة حقائق ممارساته القمعية والاستبدادية تجاه الشعوب. ويستطرد الكاتب في حديثه قائلاً: "يحاول المستعمِر تزييف التأريخ, يعيد صياغة القوانين, ويحاول أن يطمس الذكريات وكل شيء من الماضي من اجل ان يحوِّل ممارسات اغتصاب حقوق الآخرين الى عمل قانوني" [19] .

هذه هي طبائع الاستغلال الذي يمارسه المستعمِر ضد المستعمَر وبكل أنواعه سواء كان مادياً أو جسدياً او ايديولوجياً. الاغتصاب المادي يتمثل بقيام المستعمِر باغتصاب حقوق المستعمَر بغير حق أو جسدياً من خلال إجبار الثاني على العمل لصالح الأول دون مقابل أو لقاء مأكله ومسكنه أو ايديولوجياً من خلال محاولات الأول وبشتى الوسائل إخراس صوت الثاني من اجل فبركة اسطورة تفوق الجنس الابيض على الأجناس البشرية الأخرى في محاولة لإيجاد مسوغ قانوني للمشروع الاستعماري الأوربي والمؤسسات الطفيلية التي أوجدها. ويتوضح مفهوم التصنيف الطبقي للأجناس الذي حمله المستعمِر معه في رحلاته نحو بلدان الشعوب الاخرى من خلال القراءة التحليلية لمفهوم كولومبوس ونظرته تجاه السكان المحليين للجزر التي وصلها. حيث يروي لنا التأريخ كيف كان كولومبوس, وجميع طاقمه, ينظر الى السكان الأصلين لأمريكا. كان كولومبوس يؤمن بان السكان الأصليين لأمريكا يفتقرون الى الدين والثقافة ولذلك استخدم مفهوم الدين كذريعة لكي يستطيع من خلالها أن يجد مسوغاً قانونياً لاستباحة الارض وفرض قانونه عليها. أدعى كولومبوس بانه جاء الى هذه الأرض من أجل نشر الدين المسيحي وقيادة هؤلاء الأقوام الوثنيين الى نور المسيحية وكلام الله. لكننا نكتشف فيما بعد أن ما قام به كولومبوس وجميع رجاله ضد السكان المحليين لم يكن له علاقة بما ادعاه حيث قام بخطف أعداد كبيرة منهم ووضعهم على سفينته بالقوة لكي يعملوا كخدم وعبيد مسلوبي الإرادة والحرية وحق تقرير المصير. يقول الكاتب (كينيث سي دافيس) في معرض حديثه عن النوايا الحقيقية التي كانت قد دفعت كولومبوس وجميع الحملات الأوربية للأبحار بسفنهم الى بلدان أخرى والنتائج التي ترتبت على قدوم هذه الحملات:

مدفوعاً بهوس البحث عن الذهب والمكاسب المادية, قام كولومبوس باستعباد السكان المحليين. وبقدوم كولومبوس وبقية المغامرين الإسبان إضافة إلى قدوم المستعمرين الأوربيين, بدأت أعمال الإبادة الجماعية ضد سكان أمريكا المحليين من خلال إجبار السكان المحليين على العمل تحت نظام السخرة ومورست ضدهم أبشع العقوبات إضافة الى اصابتهم بالأمراض الأوربية التي لم تكن معروفه لديهم ولم تكن لديهم مناعة ضدها.[20]

أما الناقد والباحث الأدبي الأمريكي (ستيفن جرين بلات) فيكتب متحدثاً عن تأريخ رحلة كولومبوس لاكتشاف أمريكا أو ما يسمى بالعالم الجديد إن ادعاءات الأخير بخصوص عدم امتلاك السكان الأصلين لأمريكا الدين والإرث الثقافي هي ادعاءات عارية عن الصحة وليس لها أسس من المصداقية ولم تستطع أن تقف "أمام الأدلة الدامغة التي كانت تناقض ما تم ادعاؤه"[21]. من خلال هذا كله يتبين لنا وبوضوح حجم التناقض في المنهج الاستعماري والذي لجأ دائما إلى المغالطة وتزييف الحقائق من أجل تحقيق المصالح المادية التي يحصل عليها من خلال ممارساته في اغتصاب حقوق الآخرين وإبادة كل من يحاول المقاومة. هذه التناقضات والمغالطات والتي نجدها في المنهج الاستعماري وعلى مر العصور ماهي الا دليلاً واضحاً على حالة هذا المنهج المرَضية وغير السوية من الناحية النفسية والسلوكية. تتمثل هذه الحالة المرَضية في انقسام الذات عند المستعمِر وحالة من الهذيان يمكن رؤيتها بوضوح في السلوك الذي ينتهجه واللغة التي يستخدمها مع السكان المحليين. عطبيه ومرضية هذه الحالة تكمن في إن هذه الحالة لا تقود فقط الى زعزعة واضعاف سلطة المستعمِر وانما تؤدي به الى خسارة هذه السلطة وضياعها بسبب الإصرار على ممارسة سلوك متناقض تماماً مع الفكر الذي يتم ادعائه.

إن ما يسمى بالرجل الأبيض المتحضر كان قد اندفع بسفنه وأسلحته الفتاكة إلى شواطئ تبعد الاف الأميال بحثاً عن المكاسب المادية والموارد الطبيعية من أجل إدامة مشروعه التوسعي والاستيطاني. وما أن وصلت سفنُه الى شواطئ هذه

الأراضي البعيدة حتى بدأ بتنفيذ سياسة الإبادة والتهجير والعبودية من خلال استخدام العنف والقوة وبشكل همجي وبربري ضد السكان المحليين من أجل استئصالهم وإبادتهم حتى يتمكن من السيطرة الكاملة على الأرض بكل مواردها وخيراتها. ما من خطوة كان المستعمِر قد اتخذها الا وكانت تصب حصرياً في مصلحته ومن أجل منفعته الشخصية أما السكان المحليين فقد تم تهميشهم وإفقارهم وحرمانهم من موارد أراضيهم الأمر الذي قاد بالنتيجة الى استنزاف الأرض بشكل تدميري وتحويل السكان المحليين الى عبيد يعيشون حالة فقر مدقع لا يملكون غير ما يسد رمقهم. وفي حالات اخرى تم حرمانهم حتى مما يسد الرمق بسبب المجاعات والأمراض التي سببها جشع المستعمِر والتي أودت بحياة الملايين من السكان المحليين كما حدث في مجاعة مدراس في الهند (شكل 1)[22] في عام 1876. يروي لنا (مايك دافس) في حديثه عن جشع بريطانيا الذي كان السبب الرئيس في إحداث مجاعة مدراس والتي فتكت بالملايين من الهنود على الرغم من الفائض الكبير الذي كانت الهند تنتجه من زراعة الأرز والقمح: "على الرغم من انتاج القمح والأرز في مناطق الهند الأخرى كان فوق المعدل مقارنة بالسنوات الثلاث الماضية الا أن جميع هذا المحصول الزائد كان قد تم شحنه الى بريطانيا"[23]. ويستطرد الكاتب في حديثه عن معاناة ومأساة مجاعة مدراس:

> استخدم التجار خطوط السكة الحديد التي تم انشاؤها في تعميق الموقف المأساوي للمناطق التي ضربتها المجاعة. حيث بدأ التجار بنقل الحبوب من المناطق المنكوبة الى مناطق بعيدة من أجل تخزينها واحتكارها لرفع أسعارها (وحمايتها من ثورة المنكوبين الجياع). وتم استخدام نظام نقل البرقيات في جعل أسعار الحبوب في آلاف المناطق الهندية متناغمة على الرغم من المحصول الفائض في هذه المناطق. إضافة الى ذلك فان عدم رغبة وجدية السلطات البريطانية في تحديد أسعار الحبوب كان قد دفع الكثيرين ممن يملكون المال الى الدخول في هذا الهرج المحموم من أجل الكسب المادي بسبب تزايد أسعار الحبوب. وكان قد انظم الى هذا التسابق المحموم, الى جانب التجار التقليديين, تُجار من غير ذوي العلاقة من أجل تحقيق الكسب المادي مثل تُجار المجوهرات والملابس ومنهم من باع مجوهرات زوجته من أجل زيادة رأس ماله والمتاجرة بالحبوب[24].

شكل 1. مجاعة مدراس(الهند) عام 1876

هذه هي حقيقة الخطاب والمفهوم الذي طالما كان المستعمِر يردده كلما أبحر بسفنه المحملة بكل أنواع الأسلحة الفتاكة نحو شعوب العوالم الأخرى. أما شعارات "إنقاذ الشعوب" و" نشر الحضارة والديمقراطية" فلم تكن إلا ذرائع وحجج كانت قد استخدمتها جميع القوى الأوربية في الماضي والقوى العظمى في التاريخ الحديث لتغطية أطماعها ولإضفاء الشرعية على الفِكر الاستعماري الذي يهدف الى الهيمنة ونهب خيرات الشعوب. هذا الخطاب والذي أتخذه الاستعمار منهجاً ثابتاً في علاقته مع الشعوب الاخرى لم يزد فقط من رقعة الخلاف والهوة بين الشرق والغرب وإنما خلق أيضا حالة من العِداء والتوتر بين شعوب الأرض وتبلورت هذه الحالة لتصبح صراعات دموية مستمرة أودت بحياة الملايين من الجنس البشري ودمرت الجزء الأعظم من خيرات الأرض ومواردها وأعادت الإنسان الى مجاهل البربرية وشريعة الغاب.

الهوامش:

[1]Edward Gibbon, *The Decline and Fall of the Roman Empire*: Vol.1. New York: Everyman's Library, 1993.

[2] Nail Ferguson “Complexity and Collapse” February 26, 2010 "Foreign Affairs" - March/April 2010 edition. http://www.foreignaffairs.com/articles/65987/niall-ferguson/complexity-andcollapse.

[3] Frantz Fanon, *The Wretched of the World*, trans. Richard Philcox (New York: Grove Press, 2004).

[4]See Arthur Gobineau , *Essay on the Inequality of Human Races*.Vol.1, quoted in Robert J. C. Young, *Colonial Desire: Hybridity in Theory, Culture and Race* (London and New York: Routledge, 1995).

[5] William B Cohen, “The colonized as Child: British and French Colonial Rule” *African Historical Studies*, Vol.3 No.2 1970. See also, Syed Hussein Alatas, *The Myth of the Lazy Native: A Study of the Image of the Malays, Filipinos and Javanese from the 16th to the 20th Century and its Function in the Ideology of Colonial Capitalism* (London: Frank Cass 1977.

[6] George Lamming, *The Pleasures of Exile* (Michigan: Ann Arbor Paperbacks, 1992).

[7] Adam Smith, *The Wealth of Nations*, vol. 2 (London: J. M. Dent & Son Ltd, 1958).

[8] See Gavin Menzies, *1434: The Year A Magnificent Chinese Fleet Sailed to Italy and Ignited the Renaissance* (London: Harper Collins, 2008). Menzies mentions that Columbus saw maps of America 18 years before he set for the New World.

[9] Hannah Arendt, *The Origins of Totalitarianism* (New York: Harcourt, Brace & World, Inc, 1966).

[10] George E. Tinke and Mark Freeland, “Thief, Slave Trader, Murderer: Christopher Columbus and Caribbean Population Decline,” *Wicazo Sa Review*, Voll.23, no. 1 (spring 2008). < http://muse.jhu.edu >.

[11]Howard Zinn, *A People's History of the United States: 1492 – Present* (New York: Harper

Perennial, 2003).
[12] Niall Ferguson, *Empire: The Rise and Demise of the British World Order and the Lessons for Global Power* (New York: Basic Books, 2004).
[13] Quoted in Cheryl B. Welch, “Colonial Violence and the Rhetoric of Evasion: Tocqueville on Algeria,” *Political Theory*, Vol. 31, no. 2 (April 2003), pp. 235 - 264. < www.jstor.org >
[14]C. G. Jung, *Memories, Dreams, Reflections*, trans. Richard and Clara Winston (New York: Vintage Books, 1989).
[15] Jean-Paul Sartre “Introduction” to Albert Memmie’s *The Colonizer and the Colonized*, tans. Howard Greenfeld (London: Earthscan 2003).
[16]Aimé Césaire, *Discourse on Colonialism*, trans. Joan Pinkham (New York: Monthly Review Press, 2000).
[17]George Orwel, *A Collection of Essays.* (San Diego: Harcourt Brace Jovanovich, 1946).
[18] Albert Memmi, *The Colonizer and the Colonized*, tans. Howard Greenfeld (London: Earthscan 2003).
[19] Ibid, p. 52.
[20] Davis, Kenneth C. *Don’t Know Much about History: Everything you Need to Know about American History*. Harper Collins: New York, 2004).
[21] Stephen Greenblatt, *Marvelous Possessions*: *The Wonder of the New World* (Chicago: Chicago University Press, 1991).
[22] for more photos about madras famine, see: http://images.rgs.org/search_.aspx?eventID=55.
[23] See Mike Davis *Late Victorian Holocausts: el Nino Famines and the Making of the Third World*. Verso: London, 200).
[24]Ibid, p. 27.